٤٩

في لغة الإعلام العربي

د. عبد النبي اصطيف(*)

ربما كان من أهم ما يلفت نظر الدارس للغة الإعلام العربي مصطلحاته المستمدة من الإعلام الغربي، والتي يقوم بإشاعتها في الحياة العربية بكل ما تنطوي عليه من تضمنات تعكس تفكير الآخر في قضايانا أكثر مما تفصح عن المنظور العربي الذي يفترض فيها أن تجسده. وكما يمكن أن يلاحظ أي مدقق في المصطلحات المتداولة في وسائل الإعلام العربية فإن هذه المصطلحات إنما تختزل في الواقع مفاهيم يسقطها «الآخر» على المنطقة، ويحاول أن يسربها إلى وعي أبنائها ليفكروا بها على النحو الذي يريده لهم ويخلصوا إلى تبني وجهة نظره فيما يجري فيها، وهذا ما يحدث فعلاً في بعض الأوساط العربية

(*) أستاذ الأدب المقارن والنقد الحديث، ورئيس قسم اللغة العربية وآدابها، جامعة دمشق.

- العمل الفني: الفنان سعد يكن.

الرسمية التي تبدو أكثر ملكية من الملك نفسه. ومعنى هذا أن هذا «**الآخر**» يستخدم «الإعلام» سلاحاً في احتواء المنطقة العربية وتوجيه سياسات أنظمتها على مختلف الصعد لتخدم أغراضه القريبة والبعيدة التي تأتي استمراراً لنهجه الاستعماري الذي قد تتعدد صوره وأشكاله ولكن يظل هدفه واحداً وهو الإبقاء على الوطن العربي على حاله من التخلف والتجزئة والضعف تجعله بالضرورة مجرد كوكب يدور في فلك الحواضر الغربية وما تقرره في مختلف شؤون المنطقة وقضاياها، لأنه يعتمد عليها كل الاعتماد في تدبّر حاجاته ومشكلاته.

ولكن كيف يستخدم «**الآخر**» هذا السلاح، واستناداً إلى أية سلطة، وأداة الإعلام هي اللغة والصورة الثابتة والمتحركة، وكلتاهما كما تبدو في ظاهرها أداة بعيدة كل البعد عن ميدان السلاح واستخداماته في قهر الآخر وإخضاعه؟

الحقيقة أن للغة سلطاناً، وأي سلطان، وثمة علاقة وثيقة، بل محكمة أيما إحكام، بين «**اللسان والسلطان**» فاللسان، كما يذكر نسيم الخوري، صاحب كتاب «**الإعلام العربي وانهيار السلطات اللغوية**»:

«هو الفصاحة في حدتها ووضوحها، وتضمر قهر الآخر ودحره ودحضه. والفصاحة فعل تنوير أو إضاءة المبهم وإيضاحه حيث العلم والمعرفة سلطان أي حجة ونور، ويصبح الكلام، إذاً، شفوياً أو مكتوباً فعل تنوير يقهر الظلام ويدحض الجهل الكامل أو عدم المعرفة.

وتختزن الفصاحة بهذا المعنى سلطات الإنسان اللغوية في استعمالات الحروف والمفردات، فتظهر صلابتها وقوتها في أصواتها وبناها ومعانيها وأشكال علاقاتها ومقامها. واللسان هو الذي يفصح عن سلطة المتكلم في فصاحته وسلطاته مضمر في حجته وبرهانه، به يقوى وبه يضعف.

وإذا كان هذا الأمر يمنح اللغات سلطات عامة، فإن لغات أخرى مثل اليونانية واللاتينية والعربية تبدو سلطاتها ماثلة إذ تستمد من الله، فتوازي السيادة التي منها تنبثق السلطات كلها وعبرها يتجلى الإنسان في مستويات مختلفة. وهذا ما يمنح تلك اللغات سلطات خاصة[1].

ومن هنا كان الاهتمام بلغة الإعلام بوصفها سلطة مدنية تدخل إلى كل بيت دون استئذان، حتى باتت من خلال وسائط الإعلام المرئية والمسموعة والمقروءة الرفيق اللازم لإنسان العصر الحديث ولا سيما لمن يعيش في الألف الثالثة.

ولكن كيف تأتّى للغة هذا السلطان، وكيف كان لها بالتالي هذا الدور الذي

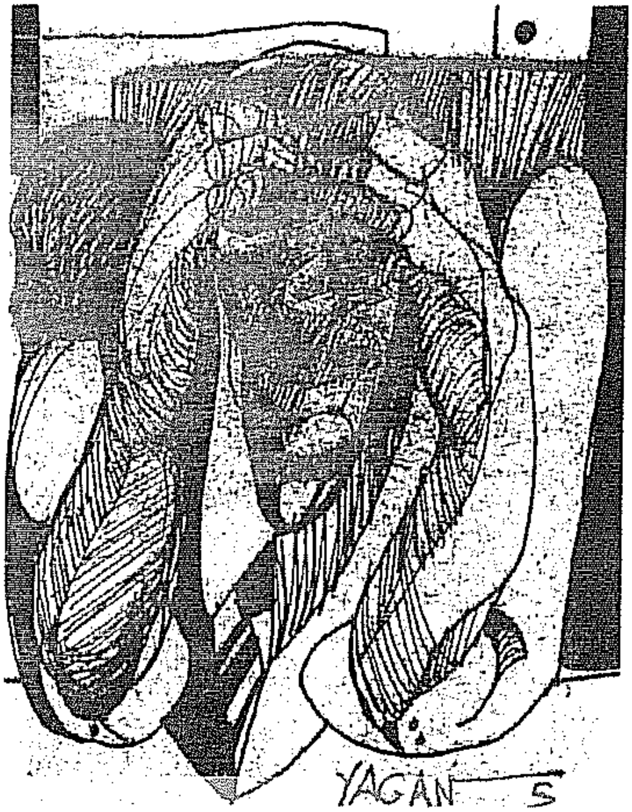

تؤديه في الحياة الإنسانية وتكتسب من خلاله هذه القدرة عليا لتأثير الهائل في مختلف وجوهها؟.

إن من يتأمل، بشيء من تعمق، طبيعة الوظائف التي تؤديها اللغة في المجتمعات الإنسانية يستطيع أن يتبين أن اللغة الطبيعية natural language الإنسانية ليست مجرد **أداة للتعبير** expression عما يعتمل في النفس الإنسانية من مشاعر وعواطف وهواجس أو عما يشغل العقل من أفكار وقضايا ومسائل وإن كانت من أفضل أدوات التعبير التي ابتكرها الإنسان، وهي كذلك ليست مجرد **أداة للتواصل** communication مع الآخرين، على الرغم من أنها من أفضل أدوات التواصل الإنساني، إنها، وهذا هو الوجه الخطير فيها، **أداة للتفكير** thinking، بها نفكر وبها ننشئ أفكارنا ونطوّرها وننميها ونرقى بها، فهي صانعة الفكر الإنساني وإن كانت هي نفسها من صنع هذا الفكر. ذلك أن العلاقة بين الفكر واللغة علاقة جدلية، يصنع الفكر اللغة مثلما تصنع اللغة الفكر، وهما مرتبطان عضوياً ومتداخلان إلى درجة يصعب معها الفصل بينهما، وحالهما في ذلك يشبه حال فاكهة شعب بوّان التي كانت إذا ما استعرنا عبارة المتنبي: «**كأشربة علقن بلا أواني**».

والفكر الإنساني يقوم على المفاهيم Concepts أو الأفكار Ideas أو Notions ويتم الإفصاح عن هذه المفاهيم أو الأفكار عادةً باختيار لفظة معينة تختزلها وتسهل تبادلها واستعمالها، أمّا من يقوم بهذا الاختيار فهو المجتمع متمثلاً بشريحة منه أو فئة أو طبقة أو مجموعة تصطلح على لفظة معينة ما لتكون تعبيراً عن هذا المفهوم وما ينطوي عليه من معان وتضمنات وصور وإيحاءات. وهكذا تتفق على استعمال لفظة ما تتخذها مصطلحاً Term أو Idiom ينطوي على جملة ما يرتبط عادة بالمفهوم أو الفكرة من معان

وتضمنات وصور وإيحاءات. ومستعمل هذا المصطلح، عندما يدرجه في إنشائه أو كلامه الذي ينشئه، يقبل طائعاً مختاراً ما ينطوي عليه، سواء أأدرك ذلك أم لم يدركه، أوعى ذلك أم لم يعه، لأن هذا المصطلح سيكون الإطار المرجعي Frame of reference الذي سيعود إليه متلقي إنشائه في تفسيره لهذا الإنشاء وفهم ما يمكن أن يفهم منه. ومعنى هذا أنه يمكن التدخل في صناعة أفكار الناس وفي عملية تشكيل وعيهم من خلال إشاعة مصطلحات معينة يستعملونها في إنشائهم لكلامهم الذي سينطوي ضمناً على معاني هذه المصطلحات وتضمناتها وصورها وإيحاءاتها، والوسيلة الأكثر نجاعة وخطورة في هذه الإشاعة هي وسائل الإعلام المقروءة والمسموعة والمرئية التي داخلت حياة الإنسان في الألف الثالثة إلى درجة الإدمان حتى غدا بدء اليوم الإنساني بالاستماع إلى آخر الأخبار التي تبثها الإذاعات المختلفة، أو مشاهدتها على شاشة التلفزيون من خلال قناة أو قنوات مفضلة، أو قراءتها في صحيفة (أو صحف) الصباح عادة يومية، مثل الطعام والشراب وغير ذلك من العادات التي بات المرء يعيش بها، وربما لها، في بعض المجتمعات، بل إن الإدمان قد وصل ببعضهم إلى درجة الاشتراك في شبكة إعلامية معينة مثل C. N. N. أو **الجزيرة** أو **العربية** أو غيرها تنقل له عبر الأفكار الصناعية ومن خلال جهاز هاتفه المحمول آخر الأخبار العاجلة التي لا تحتمل الانتظار فهي مقدّمة على كل شيء في الحياة الإنسانية، وسواها سيندرج تحت فئة «من ينتظر».

ومعنى هذا أيضاً أن من يتحكم بهذه الوسائل يمتلك بالقوة القدرة على التحكم بأفكار الناس وآرائهم في مختلف شؤون الحياة، لأنه يستطيع أن يشكل تفكيرهم ووعيهم بالأطر المرجعية التي تحكمها. وبعبارة أخرى إن من يملك هذه الوسائل قادر على صنع أفكار الناس لأن الإعلام بات، بصوره المتقدمة تقنياً وعلمياً ومعرفياً، قادراً على تشكيل وعي متلقيه على النحو الذي يجعل مما يريده أصحابه يبدو طبيعياً ومنطقياً وعادياً وبالتالي يصبح مقبولاً بل ربما غير قابل للنقاش.

ولما كان الغرب يمتلك المعرفة وأدواتها ومصادرها ويمتلك ما ينتج عنها من سلطان فقد كان من الطبيعي أن يستخدم وسائل إعلامه في تشكيل وعي الأمم والشعوب التي يودّ أن يعزز هيمنته عليها من خلال التحكم بالأطر المرجعية لتفكيرها، لكي تفكر بالطريقة التي يرسمها لها، وعلى النحو الذي يرغب فيه، فيبدو ما

يريده منها طبيعياً ومنطقياً وعادياً وغير قابل للمساءلة. وحسب المرء أن يشير على سبيل المثال إلى انقياد العالم شرقاً وغرباً شمالاً وجنوباً وراء الحملة الغربية على جمهورية إيران الإسلامية بسبب سعيها إلى كسر احتكار المعرفة المتصلة بالطاقة النووية حتى ولو كان يصمت فيه صمتاً مريباً حقاً عن مئات الرؤوس النووية التي يمتلكها الكيان الصهيوني ويستطيع استعمالها ضد أي هدف في المنطقة وما وراءها من خلال ما يمتلكه من صواريخ أرضية بعيدة المدى، وسلاح جوي هو الأكثر تطوراً في العالم، وغواصات نووية تجوب بحار العالم ومحيطاته مما يشكل تهديداً صارخاً للأمن العالمي. ولكن الغرب، الذي لا يريد الحديث عن هذا التهديد الذي لا يشمله بسبب تماهي المصالح، لم يغض طرفه عنه في وسائل إعلامه وحسب، بل إنه قد حوله بصمته الدائب عنه إلى موضوع نادراً ما يداخل التفكير الإنساني حتى لدى العرب المعنيين بهذا الخطر الذي أريد به تدجينهم وردعهم عن التفكير في مقاومة الإرادة الصهيونية أو إبداء أية ممانعة تجاهها مهما انخفض مستواها، ومهما تضاءلت درجتها، ومهما تقلصت جدواها.

وعلى النحو نفسه فإن الإعلام الصهيوني يودّ كذلك أن يعزز هيمنة الكيان الصهيوني من خلال التأثير في طبيعة وعي العربي بقضيته المركزية وهي "**فلسطين المغتصبة وأهلها المغلوبون على أمرهم الموزعون بين الوطن المحتل والمنافي والمغتربات**» ودفع العرب إلى حافة اليأس حتى يقلعوا عن التفكير في استعادة بعض حقوق أهلها في جزء منها (قطاع غزة والضفة الغربية). وهكذا نرى الكيان الصهيوني يعمد إلى رسم الخطط الإعلامية واتخاذها إستراتيجيات عمل تفيد من أحدث تقنيات العصر وآخر ما وصلت إليه الأبحاث الإعلامية الحديثة، من أجل التركيز على رسالة معينة وتوجيه الجهود الإعلامية ونشرها وتكريسها، وبذلك تبقى الأمور التي يريدها وتخدم مصالحه وإستراتيجياته في الواجهة ولا تضيع في خضم القضايا التي تشغل الرأي العام العربي والإقليمي والدولي.

فإذا أخذنا **الخطة الإعلامية الإسرائيلية لعام ٢٠٠٢م**، كما اطلعت عليها الدكتورة بثينة شعبان، وتحدثت عنها في مقالتها الأسبوعية التي تنشرها في عدد من الصحف العربية:

«نجد أنها تركز على رسالتين أساسيتين أرادت إسرائيل وعملت بكل أجهزتها وأدواتها الإعلامية على ترسيخهما في أذهان العالم. الرسالة الأولى هي تغييب

حقيقة الاحتلال أي عدم الكلام عن وجود احتلال للأراضي الفلسطينية والرسالة الثانية هي التحدث عن الإسرائيليين والفلسطينيين كطرفين متساويين وذلك لطمس حقيقة وجود قوة متعدية ومغتصبة هي إسرائيل وشعب يعتدى عليه وتستباح أرضه وحرمانه هو الشعب الفلسطيني[٢].

ومن الطبيعي أن يسعى الكيان الصهيوني المزدرع في قلب الوطن العربي إلى تحقيق أهدافه القريبة والبعيدة بشتى الوسائل المتاحة لديه، سواء أكانت مشروعة أم غير مشروعة، ولكن المفارقة المروعة أن وسائل الإعلام الصهيوني التي تهدف:

«إلى تقويض الحق العربي تتسرب وتنفذ إلى إعلامنا العربي ولغتنا الإعلامية وهنا تكمن الخطورة الكبرى. فإعلامنا العربي هو إعلام متلق وغير صانع للخبر مصادره غير عربية وهي وكالات الأنباء العالمية التي تصوغ الأخبار بلغتها ومصطلحاتها (وهي مصطلحات معوّمة لا تنقل الحقيقة بل تشوهها في كثير من الأحيان) وتبثها باستخدام التقنيات الحديثة عبر شبكة المعلومات ويعمل إعلاميونا على أخذ الأخبار دون مراجعة وتدقيق بطريقة cut & paste وإدراجها وبثها كما هي عبر وسائل الإعلام العربي بمختلف أشكالها مستخدمين المصطلح واللغة المدسوسين والمصممين لتسطيح الحقائق وقلبها. الكارثة هي أننا نعتاد هذه اللغة ونستخدمها وكأنها اللغة الواقعية. وقد لاحظنا في العام ٢٠٠٣ أن بعض القادة والمسؤولين العرب بدؤوا يتحدثون بطريقة: (على الفلسطينيين والإسرائيليين أن يفعلوا كذا)، أي أنهم ساووا بين الطرفين وهذا أمر خطير جداً[٣].

وحتى لا يخامر أذهان بعضهم الظن بأن الحديث عن **عبودية الآخر في الإعلام العربي** حديث ينطوي على مبالغة، تسهم من حيث لا تقصد في خدمة أهداف أعداء الأمة في إضعافها وإضعاف إرادة المقاومة لديها، فإنه ربما كان من الحكمة سوق **مثال عملي على الطريقة التي بتنا نفكر بها في قضايانا المصيرية، والمصطلح الذي نستخدمه إطاراً مرجعياً في هذا التفكير من خلال تبنينا الأعمى له بكل ما ينطوي عليه من ألغام تهدد إيماننا بحقوقنا المشروعة التي قرّها القانون الدولي، والقانون الإنساني الدولي، والقانون الأخلاقي، فضلاً عن الشرائع السماوية التي ندعي الإيمان بها.**

فعلى سبيل المثال نشرت **شبكة الجزيرة** aljazeera.net بتاريخ ٢٠٠٥/٩/٢٥م على موقعها الخبر التالي

الذي يتناول أوضاع أهلنا في غزة المحتلة تحت عنوان:

عباس يطالب بإنهاء فوضى السلاح

شهيدان من حماس

وإسرائيل تعد لهجوم واسع على غزة

«استمرت هجمات الفصائل الفلسطينية بقذائف الهاون والصواريخ على جنوب إسرائيل رغم الغارات المتوالية لجيش الاحتلال على قطاع غزة والتي أسفرت اليوم عن سقوط شهيدين من حركة المقاومة الإسلامية (حماس).

واعترف بيان لجيش الاحتلال الإسرائيلي بسقوط ٣٥ صاروخاً على الأقل أطلقت من القطاع داخل إسرائيل مما أسفر عن جرح نحو ثمانية إسرائيليين. وصدرت أوامر لسكان بلدة سديروت بالبقاء في منازلهم حيث تستهدفها معظم الهجمات.

كانت حماس وعدت بالرد على الغارة التي استهدفت اليوم حي الزيتون شرق مدينة غزة. وقال المتحدث باسم الحركة مشير المصري إن كل الخيارات مفتوحة بما فيها ضرب العمق الإسرائيلي.

وأعلنت كتائب عز الدين القسام الجناح العسكري للحركة حالة الاستنفار القصوى في صفوف عناصرها في الضفة الغربية وقطاع غزة وتوعدت في بيان لها بنشر «الموت والرعب» في المدن الإسرائيلية.

وأكدت الكتائب استشهاد اثنين من عناصرها في الغارة التي استهدفت سيارتين تقلان عناصر من حماس. وذكرت متحدثة باسم جيش الاحتلال بوقوع الغارة وأكدت أن السيارتين كانتا تنقلان أسلحة ونشطاء للحركة مطالبة أجهزة الأمن الفلسطينية بمنع الهجمات على إسرائيل(٤).

وأول ما نلاحظه في صوغ هذا الخبر الفعل «استمرت» الذي يشير إلى ديمومة بدأت في لحظة ما من الماضي ولا زالت راهنة في الحاضر، مع افتراض ضمني مسوّغ بأنها ستشق طريقها إلى المستقبل الآتي. بعدها يأتي موضوع هذا الفعل وهو «**هجمات**» وهو اسم يدل على القيام بفعل موجب ينطوي على إرادة قوية في النيل من المستهدف بهذه الهجمات، وبعدها تأتي كلمة «**الفصائل**» وهي مصطلح عسكري يشير إلى تشكيل قتالي في جيش منظم موزع على جماعات وفصائل وسرايا وكتائب وألوية وفرق وأفواج، ليتلوها الحديث عن «**قذائف الهاون والصواريخ**» مما يعطي الانطباع بأن هناك تنوعاً في أسلحة هذه الفصائل يشمل فيما يشمل مدفعية الهاون والصواريخ (التي يمكن أن

تكون مشمولة بمقولة التنوع). وهكذا تبدو فصائل الفلسطينيين فريقاً نداً لجيش الاحتلال الصهيوني تنظيماً وتسليحاً من جهة، ومثابرة على المواجهة من جهة أخرى. ويبدو الأمر من البداية على أنه مواجهة متكافئة بين فريقين يتنازعان على هدف معين، يعرفه القارئ أو المشاهد، بل إنه يألفه إلى درجة تجعل ذكره غير ضروري، وهو ما يتشدق به من باتوا يسمون أنفسهم بحمائم السلام في الدولة العبرية الذين يتحدثون عن **صراع دائر «بين حقين»** «Between two rights» عندما يناقشون ما يدعونه بالصراع العربي الإسرائيلي، وبهذا يتساوى الجلاد والضحية، المحتل لأرض غيره والمحتلة أرضه، القاتل والقتيل، المجرم والمغدور، المغتصِب والمغتَصَب، مما يلغي الحديث عن أي حق، أو حقوق، لهذا الطرف الأخير، ويجعل أي ذكر لهذه الحقوق بما فيها الحقوق التي تكفلها اتفاقيات جنيف، أو تلك التي يكفلها القانون الدولي الإنساني، أمراً غير وارد أصلاً.

ثم يأتي الحديث بعد ذلك عن «**جنوب إسرائيل**» أي عن كيان محدد يمكن أن يشير المرء إلى اتجاهات أربعة فيه، مع أن إسرائيل أو الدولة العبرية دولة لا حدود لها ولا دستور، فحدودها مفتوحة على فسحة عدوانها على جيرانها في شتى الاتجاهات، ودستورها هو قانون القوة الغاشمة الذي يلخصه **مبدأ «القوة حق»** «might is right». وبعدها يسوق الخبر إشارة إلى «**الغارات الإسرائيلية المتوالية**» والتي لم يمنع توالي‍ها من استمرار هجمات الفصائل الفلسطينية، أي إن هذه الغارات التي تستخدم فيها أحدث الطائرات المقاتلة من طراز إف ١٦، وأشد الأسلحة فتكاً، غير مجدية ولا فعالة في تحييد مصادر نيران العدو. وهو خلاف الحقيقة التي يراها مشاهد القنوات الفضائية دماراً واسعاً يسوي كل شيء، حتى بيوت الصفيح التي تؤوي سكان المخيمات، بالأرض، وقتلاً عشوائياً للنساء والأطفال وتشريداً أبدياً للفلسطيني المحكوم بالنفي واللجوء حتى أرضه. ومع ذلك فإن كلمة «**رغم**» تناقض هذه الحقائق التي تزدرعها قوات الاحتلال على الأرض لتوهم بأن اليد العليا في هذه المواجهة لا زالت للجانب الفلسطيني أو للفصائل الفلسطينية في قطاع غزة المستهدفة من جانب جيش الاحتلال، ولكن أي جيش هذا، وما هويته؟ وماذا يحتل؟ وهي أسئلة لا تخطر على بال محرر الخبر، فليس ثمة من حاجة إلى ذكرها.

بعدها تأتي عبارة «**سقوط شهيدين**»، التي تستدعيها على نحو آلي كلمة «**الغارات**»، وعبارة «**جيش الاحتلال**»،

مرهصة بالعبارة التي تليها وهي «**حركة المقاومة الإسلامية (حماس)**».

وما دامت الحركة إسلامية فلا بد أن تسمي ضحاياها بالشهداء، وهذا طبيعي في السياق الذي يحكم دلالة الخبر، ومقابل هذا العدد المحدود من ضحايا الغارات الإسرائيلية المتوالية يأتي «**بيان جيش الاحتلال الإسرائيلي**» ليعترف بسقوط «**٣٥ صاروخاً على الأقل، أطلقت من القطاع**» الذي هو خارج إسرائيل إلى داخلها «**مما أسفر عن جرح نحو ثمانية إسرائيلين**»، والجريح يستدعي تعاطفاً أكبر من القتيل لأنه يعاني من جراحه، بينما تنتهي معاناة القتيل بموته، ومعاناة أهله ليست بشيء لأنها معاناة سليم معافى من الأذى. وهكذا ترجح كفة معاناة الجرحى من الإسرائيليين الذين لا تتحدد صفاتهم، وهم في الحقيقة مستوطنون مغتصبون للأرض، مسلحون ومدربون على مختلف فنون القتال، قدموا من بقعة ما من الأرض مسلحين بالقوة الغاشمة للدولة المغتصبة وبقانون العودة الذي سنته، ليغتصبوا أرضاً جديدة، ويطردوا أهلها، مستظلين بأيديولوجية عنصرية، ومستغلين تعاطف أوروبة المذنبة بحقهم، ومبتزين لدعمها في سبيل تحقيق مآربهم. وتمضي الجملة الأخيرة من الفقرة لتؤكد جملة من صفاتهم، فهم سكان مدينون للقانون والنظام يتلقون الأوامر وينفذونها، وهم سكان منازل (التي تقترن بها دلالات تتصل بطلب الراحة والنوم والأمان بعد سفر ونصب ومعاناة) تشكل بلدة، مقابل المدينة التي يسكنها الطرف الفلسطيني الذي يستهدف بهجماته هذه البلدة الضعيفة وسكانها الآمنين فيطلق عليها هذا العدد الهائل من الصواريخ ويصيب من يصيب منهم، مقابل شهيدين مقاتلين لأن الغالب أن يستشهد المرء وهو يقاتل في ساحة الوغى، أما من يدفن تحت ركام بيته الذي هدمه قصف الطائرات القاذفة المقاتلة بصواريخها الذكية المدمّرة فلا ينظر إليه على أنه شهيد في الذهن العربي.

وتأتي بعد ذلك الإشارة إلى نزعة التحدي التي تشي بها عبارة «**كانت حماس وعدت بالرد على الغارة التي استهدفت اليوم حي الزيتون شرق مدينة غزة**»، وإلى **الرد الموعود**، وإلى «**كل الخيارات المفتوحة**» وكأن حماس أو غيرها من فصائل المقاومة الفلسطينية تملك خيارات كثيرة وهي المحشورة بين فكي كماشة السلطة والأنظمة العربية، التي لا تقدم لها غير الضغوط التي تستهدف إرضاء العدو تحت ذريعة التهدئة بغرض التخفيف من معاناة الشعب الفلسطيني، وبين العدو الصهيوني الذي يلاحقها مؤسسات ومجتمعاً وأفراداً براً وبحراً وجواً من أجل

تصفيتها من الوجود بوسيلة وحشية (استهداف الأفراد بالصواريخ) تعدّ من جرائم الحرب التي تعاقب عليها جميع القوانين. وتختتم الفقرة بالحديث عن «**ضرب العمق الإسرائيلي**»، وكأن حماس أو غيرها تملك أسلحة استراتيجية تشكل ملاذها الأخير في مواجهة الطرف الآخر فتهدده بضرب عمقه بصواريخها (التي لا يتجاوز مداها خمسة كيلو مترات ولا يتجاوز وزنها الخمسة كيلو غرامات) العابرة للآلام والمشحونة بالغضب وخيبة الأمل بالعرب والمسلمين الذين نسوا أولى القبلتين وثالث الحرمين وهم يطأطئون رؤوسهم لسادة النظام العالمي الجديد معلنين أنهم يقفون إلى جانبه في حربه المعلنة، والتي لا تبقي ولا تذر، ضد «**الإرهاب الدولي**» أو «**الإرهاب الإسلامي**» هذا العدو/ الشبح الذي بات يهدد الإنسانية في الكوكب الأرضي كله، وغدا خطراً لا بد من احتوائه بشتى السبل.

وتعزيزاً لهذا الإيحاء تمضي الفقرة التالية لتتحدث عن **كتائب** «تحمل اسم **عز الدين القسام** الشيخ القادم من جبلة، من خارج فلسطين، (مما يؤكد صلة الكتائب بالإرهاب الإقليمي)، ويأتي الشرح المقتضب: «**الجناح العسكري للحركة**» الذي يؤكد بدوره مصداقية فكرة التكافؤ بين طرفي المواجهة ويرسخها، ويتلوه الحديث عن «**حالة الاستنفار القصوى في صفوف عناصرها في الضفة الغربية وقطاع غزة**»، فهو إذن استنفار شامل للكتائب في كل الأرض الفلسطينية التي تقف في مواجهة الأرض الإسرائيلية، ويأتي بعد ذلك الوعيد (بالويل والثبور وعظائم الأمور).

«**بنشر الموت والرعب**» في المدن الإسرائيلية الآمنة، ترسيخاً لصفة الإرهاب التي ألصقت بحركة المقاومة التي تروّع مدنيي إسرائيل الآمنين، وكسباً لتعاطف سكان المدن الآمنة في العالم الذين زرع الرئيس جورج بوش الابن فيهم الخوف من خطر مبهم وشيك القدوم في زمن مفتوح على الغيب، ومكان مفتوح على المجهول.

وتأتي بعد ذلك الفقرة قبل الأخيرة من الخبر الذي يؤكد باستمرار تكافؤ طرفي المواجهة، وفيها تعلن «**الكتائب استشهاد اثنين من عناصرها**» أي مقاتليها، وأن هذا الاستشهاد جاء أثناء مواجهة بين طائرات مغيرة وسيارتين «**تنقلان أسلحة ونشطاء للحركة**»، وبعدها يأتي التسويغ الضمني للغارة على لسان متحدثة باسم جيش الاحتلال من خلال تأكيدها وقوع الغارة التي كانت مشروعة تماماً لأنها استهدفت أسلحة ونشطاء مقابل استهداف حماس للمدنيين الإسرائيليين في المدن الإسرائيلية

الآمنة، وأنها كانت شراً لا بد منه أملاه تقصير أجهزة الأمن الفلسطينية التي لم تمنع هجمات الفصائل على إسرائيل خارقة بذلك الاتفاقات والعهود والمواثيق الموقعة بين السلطة الفلسطينية والحكومة الإسرائيلية.

وهكذا تحول الاحتلال والعدوان الدائم و ما يرتكبه العدو الصهيوني من جرائم يومية بحق أهلنا العزّل في الأرض المحتلة إلى مجرد نزاع بين طرفين متكافئين في كل شيء إلاّ في الأخلاق والنظام والقانون والوفاء بالالتزامات والاتفاقات والمواثيق والتي هي جميعاً من شأن الطرف الإسرائيلي الذي يشكل واحة الديمقراطية والحضارة التي تكافح من أجل البقاء.

والمفارقة أن كل ذلك يأتي في خبر تبثه قناة فضائية عربية في مختلف أنحاء المعمورة بالعربية وبالإنكليزية وغيرهما، لأنها، وبعد بثها الحصري لعدد من رسائل بن لادن وأتباعه، غدت مصدراً موثوقاً للأخبار العالمية تقبس عنه وكالات الأنباء وتنشر معلوماته وسائل الإعلام في مختلف أنحاء العالم. ولا يدري العربي بعد هذا إن كان عليه أن يبحث عن عدوّ له ما دام يمتلك صديقاً أو أخاً عربياً مثل هذه القناة أو الشبكة التي تحمل اسم الجزيرة **مهد العرب ورسالة الإسلام**.

صفوة القول:

والسؤال الذي يلح أيما إلحاح على المرء بعد هذا العرض المقتضب لتأثير «الآخر» في لغة الإعلام العربي، ولا سيما مصطلحاته أو أطره المرجعية التي تحكم التفكير في قضايا الوطن والأمة في عالمنا، عالم النظام العالمي الجديد، وفي ظل العولمة التي تمسك بزمامها الشركات العابرة للقارات، هو ما السبيل إلى احتواء هذا التأثير والحد من خطورته على التفكير العربي في عالم اليوم؟

يبدو لي أن الجواب يكمن في مبدأ ينبغي أن يحكم حياتنا الراهنة هو «الأمن المعرفي» الذي لا يمكن أن يتحقق بغير توافر القدرة على إنتاج المعرفة التي يحتاجها مجتمعنا وأمتنا، وبالتالي التخفيف التدريجي من درجة اعتمادنا على «الآخر» في هذه المعرفة وما ينتج عنها من مخرجات ربما كان من أهمها وسائل الاتصال الحديثة وتقاناتها المتقدمة التي نستطيع أن نوظفها في بناء إعلام يتحدث بالعربية: مفاهيم ومصطلحات، لأنه يفصح **عن هواجس** أمة تتطلع إلى مستقبل واعد

تقرّر شكله وآفاقه وحدوده بنفسها ولا تتطلع فيه إلى أنموذج صممه وبناه «الآخر» لنفسه، ولا تقبل نسخة ممسوخة ومنسوخة عنه، لأن ربح العالم كله لا يغني عن فقد الذات.

إن كسر احتكار الغرب لمصادر المعرفة، وللتقانات المتقدمة في وسائل الاتصالات، وللمنابر الإعلامية، لا يمكن أن يتحقق دون استثمارات كافية في ميدان الإنتاج المعرفي، فالمجتمع الذي يعتمد على «الآخر» في إنتاج المعرفة التي يحتاجها في جميع وجوه حياته يضع، من حيث لا يدري، مستقبله، فضلاً عن حاضره، رهينة في يد هذا «الآخر»، ومن المؤسف أن المجتمع العربي لا يكاد يفكر في أمنه المعرفي تفكيره في ضروب أمنه الأخرى. ذلك أن المعرفة قوة، وعندما افتقدناها والتمسنا القوة بأسباب أخرى وصلنا إلى ما نحن فيه من ضعف وتبعية وخسرنا إرادتنا وحريتنا وقدرتنا على الإفصاح عما بداخل نفوسنا من مواجد، وعما يشاغل عقولنا من أفكار، وعما يؤرق أرواحنا من طموحات، وحالنا في ذلك يشبه حال النجم الذي هوى إلى دركه الكواكب عندما افتقد مصدر الطاقة حرارة وضياءً ونوراً فدار في فلك نجم آخر يستمدها جميعاً منه، وسبيله الأوحد في العودة إلى منزلته الأولى هو العودة إلى توليد هذه الطاقة، وإلى إنتاجها ذاتياً. وطاقة الأمة التي تريد أن ترتقي إلى مصاف النجوم تكمن في المعرفة التي تنتجها، ودونها ستظل أبداً مجرد كوكب يدور في فلك من ينتج هذه المعرفة.

الحواشي

(١) انظر: الدكتور نسيم الخوري، **الإعلام العربي وانهيار السلطات اللغوية**، (مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت ٢٠٠٥)، ص١٠٦.

(٢) انظر: د. بثينة شعبان، «المصطلح الإعلامي ودوره السياسي في القضايا العربية الراهنة»، **دراسات فكرية** (دمشق)، العدد ٣، ٢٠٠٤/٥/١٨م، ص٩٣.

(٣) انظر **المرجع نفسه**، ص ٩٣ - ٩٤.

(4) Http:/WWW. aljazeera. net/ NR/ exeres / D 3 C 12 D 05 - 0DEB4C4B-BF 2EF 68DE 6 CE7 BBB. htm.